**المحاضرة السادسة: المقاربات الحتمية لدراسة الرأي العام والوسائط الجديدة**

**المقاربة الحتمية**

تفترض نظرية الحتمية القيمية أن السلوك الإنساني لا ينطلق من الدوافع والحاجات الفردية، بل من حاجات "ما فوق الفردية" التي تنطلق من القيم الدينية بالأساس. بل تنطلق من منظور حضاري كلي يجعل من المجتمع وقيمه العليا المفترضة هي المتغير الأساسي والمستقل، لذلك هي نظرية مثالية ومعيارية. وبالتالي تشكل منطلقا لما ينبغي أن يكون وليس من خلال ما هو كائن، لأن الواقع مترد وعلى غير ما يرام.

تحفل أطروحات عزي عبد الرحمان بعدد وافر من المصطلحات والمفاهيم المترابطة إلى حد كبير في إطار رؤيته الأوسع حول الحتمية القيمية ودور النسق القيمي في الاتصال الإنساني. ومن أمثلة تلك المفاهيم: المخيال الاجتماعي وهو بديل لمفهوم الرأي العام في الاستخدام الغربي. ثم مفهوم الزمن الاجتماعي والزمن الإعلامي والزمن الرمزي، والمكان المعايش مقابل المكان الرمزي، والرأسمال الرمزي الجديد (الإعلام)، والسكة القيمية الإعلامية، وغيرها من المفاهيم التي أضفى عليها عزي عبد الرحمان صبغته الخاصة التي تتواءم وأطروحته الأكبر؟، ونقتصر عنا على مفهومين محوريين كالتالي:

* **القيمة (Value)**: مفهوم القيمة هو المفهوم المركزي لنظرية الحتمية القيمية، ويعرفها عزي بأنها الارتقاء، أو ما يسمو في المعنى، وهي معنوية قد يسعى الإنسان تجسيدها عمليا كلما ارتفع بفعله وعقله إلى منزلة أعلى، وهو أيضا يربطها حصريا بالدين ، مايعلوا من الشيء ويرتبط بالمعاني الكامنة في الدين. أما بالنسبة للقيمة ف بوسائل الإعلام ، فهي كامنة في الرسالة وليس في الوسيلة خلافا لافتراض مارشال ماكلوهان الذي افترض أن "الوسيلة هي الرسالة"، أو هي المحك أو المحدد الأهم. بينما تمثل الرسالة شكلا ومضمونا، وهي أي الرسالة تمثل المرجع في ضبط العلاقة بين الثقافة ووسائل الإعلام.

أما تعريف قاموس أكسفورد باللغة الإنجليزية أن القيم تمثل مستويات معيارية، فهي مبادئ أو معايير للسلوك يستخدمها المرء في الحكم على ما هو مهم في الحياة أو هو مفضل وغير مفضل، أو ما يتعلق بما يستحق الأهمية، وفيه فائدة أو قيمة الاستعمال.

بما أن رؤية عزي عبد الرحمان تحصر مصدر القيمة في الدين، فالواقع يوجد مصادر أخرى للقيم تنافس الدين في إنتاج القيم أو تتكامل مع نسقه القيم أو تتكامل مع نسقه القيمي وبعضها يمتلك من القوة والثبات ما تملكه القيم الدينية، خصوصا في المجتمعات الأكثر تقليدية.

* **الحتمية (Determinism ):** هي فرضية فلسفية تقول: إن كل حدث في الكون –بما في ذلك المجتمع الإنساني – وإدراك الإنسان وتصرفاته خاضع لقانون منطقي سببي ينطلق من سبب أصيل أو فائض بمعني يفيض أو يفضي بدوره إلى أنماط معينة من الظواهر، وبالتالي فنظرية الحتمية هي إعادة الحوادث والظواهر إلى مصدر واحد أو متغير رئيس واحد. وقد يكون هذا المتغير في نظر المؤمنين قدرا من الله أو قانونا إلهيا وضعه في خلقه، وهو في نظر آخرين قانون طبيعي، كأن يكون الاقتصاد أو وسائل الإنتاج هي المتغير الرئيس في تحديد مراكز السلطة والسيطرة أو أن تكون تكنولوجيا وسائل الإعلام هي المتغير الرئيس في إنتاج الثقافة والقوة، وليس مضمون تلك الوسائل، أو يكون النسق القيمي الفائض من الدين هو المتغير الرئيس لملامح الحضارة والثقافة كما تفترض نظرية الحتمية القيمية.

المشكل النظري في هذا المفهوم هو أن قانون الحتميات يمثل الفلسفة التي تتمركز حول الطبيعة، فالإنسان لا يملك خيارات بل قوانين الطبيعة وحتمياتها التي تسيره، مقابل الاتجاه الآخر الذي يتمركز حول الإنسان، بصفته كائنا معرفيا وكيانا ثقافيا مركبا متعدد الأبعاد، صاحب وعي تاريخي ينطلق من بنية عقلية ومنظومة فكرية وقيمية وأخلاقية، يمكنه العيش في العلم الطبيعي متميزا عنه ومتجاوزا إياه. وهذه الرؤية تعلي من شأن إدارة الإنسان الواعية.

وتنطلق نظرية الحتمية القيمية من أساس يعتبر الإعلام رسالة وأهم معيار في تقييم الرسالة أي القيمة التي تنبع أساس من المعتقد والدين، هذه القيمة التي تدخل في تشكيل الثقافة الاجتماعية وأحد فواعلها الأساسية، وفي مستوى آخر من التحليل نجد عزي يقدم نظريته ذات جوهر فلسفي اجتماعي ويرى أن للقيمة أهمية وقدرة على تفسير الكثير من الظواهر والوقائع الاجتماعية، من خلال تتبع عملية استخدام وسائل تكنولوجيا الإعلام والاتصال وتداعيات استهلاك المادة الإعلامية بمحتواها ومضمونها الإيحائي الذي يستهدف نشر فكر معين أو قناعة وهو ما يؤثر على الفرد وعلاقاته بمحيطه ونسقه الاجتماعي، وهنا يظهر التأثير الإعلامي على المنظمومة القيمية للجمهور المستهدف مما يؤدي إلى انتشار أفكار جديدة وقناعات بديلة، من شأنها تؤثر في صورة علاقات وأنشطة وأنماط سلوكية جديدة.